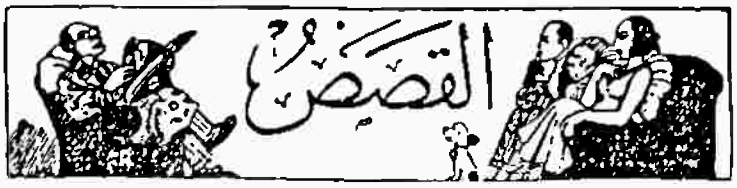

المارد الذي يحب نفسه

للكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد

كان الأطفال قد اعتادوا دخول بستان المارد واللعب فيه حين يعودون من المدرسة عصر كل يوم . وكان بستاناً واسعاً ، رقيق الحواشي ، قد اكتست أرضه بالعشب الأخضر الطري ، وانتثرت في أرجائه الأزهار الجميلة كأنها النجوم . وكانت فيه اثنتا عشرة شجرة من أشجار الخوخ التي تتفتق في الربيع عن أزهار رقيقة زاهية الألوان كأنها اللآلئ ، تتحول في الصيف إلى ثمار يانعة سائغة . وكانت الأطيار فيه تعتلي غصون الشجر وتغرد في عذوبة تصرف الأطفال عن ألعابهم وتستوقفهم مأخوذين ، فلا يملكون أن يعبروا عن نشوتهم بغير هذا القول:

— ألا ما أسعدنا في هذا المكان !

غير أن المارد عاد يوماً من زيارة أحد أصدقائه الغيلان، بعد أن لبث معه سبع سنين ، أنهى في خلالها كل ما أراد أن يحدثه به — فإن محادثته كانت محدودة تنتهي ولا شك — عاد العملاق إلى قصره فرأى الصغار يلعبون ويمرحون في البستان ! فصرخ فيهم بصوت خشن غليظ قائلا :

— ماذا تصنعون هنا ؟

فانطلق الأطفال من فورهم هاربين ! ثم استأنف المارد صراخه قائلا :

— إنما هذا البستان ملكي ، وذلك ما يستطيع إدراكه كل إنسان ، ولست أسمح لأحد غيري باللعب فيه أبداً :

ثم قام فصنع جداراً رفيعاً سور به بستانه ، ورفع لوحة كتب عليها هذا الإعلان :

سيجزى المخالفون شر الجزاء

فياله من مارد لا يؤثر أحداً بالحب سواه !

الخامسة ص ١٥٨٧ ، وفي الصفحة التالية من المرجع نفسه يقول لأحد أصدقائه . « ما كانت لامرىء عندي من منة إلا — وعنيت موته — »

٣ — وقال البديع في المقامة الناجية : « وما سكنت حرب إلا — وكنت فيها سفيراً — »

٤ - ومن أبيات الشواهد :

نعم امرأ هرم لم تعر نائبة إلا ـ وكان ـ لمرتاع بها وزرا

٥ — وقال عنترة :

أنا الشجاع الذي ما رمت منزلة إلا ـ وأدركها ـ سعدي وإقبالي

٦ — وقال أبو فراس :

وما اشتورت إلا ـ وأصبح ـ شيخها

ولا احتربت إلا — وكان — فتاها

٧ — وقال المبرد يشرح بيت الفرزدق :

بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم

ولم تكثر القتلى بهـا حين سلت

وهذا البيت طريف عند أصحاب المعاني ، وتأويله لم يشيموا لم يغمدوا ولم تكثر القتلى : أي لم يغمدوا سيوفهم إلا — وقد كثرت — القتلى حين سلت . اه بلفظه نقلا عن تهذيب الكامل للأستاذ السباعي ج ١ ص ٣١٢

فقد أتى مع الواو بقد وورد مثل هذا شعراً ونثراً

أقول : والذي هداني إليه البحث وتتبع الأساليب العربية ، أن تجريد الفعل من الواو في مثل هذا أكثر ، وهو مع كثرته لغة القرآن الكريم ، ودخول الواو على الفعل وحدها أو مع قد مسموع في الفصيح شعراً ونثراً ، ولسنا في حاجة إلى صرف هذه الشواهد إلى الضرورة أو الشذوذ أو لأن بعضها لا يحتج بقائله ، وليسع أدباؤنا المعاصرون الذين يشيع على ألسنتهم ، وفي كتاباتهم هذا التعبير ما وسع هؤلاء الأفاضل ، فليس من الخطأ على كل حال ، وإن كان التجرد أكثر على ما يظهر

رباصه عباس

ولم يبق حينذاك للأطفال الصغار مكان ملعب يرتعون فيه . لقد حاولوا أن يتخذوا لهم من الشارع ملعباً ، ولكنهم زهدوا فيه حين وجدوه مليئاً بالأتربة والأحجار ، وظلوا كذلك يحومون حول الجدر الرفيعة — حين ينتهون من دروسهم — لاهجين بجمال ذلك البستان الذي وراء تلك الأسوار ، و بأيام سعادتهم التي انتهت ، يقولون :

— ألا ما كان أسعدنا هناك !

ثم قدم الربيع وانتشرت بمقدمه الأزهار والأطيار في كل ناحية على الأرض غير بستان هذا المارد اللئيم الذي لم يبرحه الشتاء . إن الأطيار لم يهمها أن تغرد فيه حين غاب عنه الأطفال؛ وإن الأشجار قد نسيت أن تورق أو تزهر ... ولقد أخرجت إحدى الأزهار الجميلة مرة رأسها من بين الأعشاب فهالها وأحزنها أن ترى لوحة الإعلان تمنع الصغار من غشيان البستان ، وانسلت هاربة لتستأنف نومها العميق الذي كانت مستغرقة فيه . ولم يكن في العالم أحد قد استولى السرور عليه غير « الثلج » و « الجليد » اللذين قالا في نفسيهما :

— إن الربيع قد نسي هذا البستان ، ولذلك فإننا سنحيا هنا طوال العام !

وكذلك طغى « الثلج » على الأعشاب وأسبل عليها طرف ردائه السابغ ، وانتشر « الجليد » على الأشجار فكساها حلة من الفضة ازدانت بها ؛ ثم إنهما أمرا ريح الشمال أن تبق معهما فلبت أمرها ، وجاءت ملتفة بالفراء تصفر طوال النهار خلال البستان والمداخن ، فرحة بهذا المكان البهيج

ثم إنهم قرروا دعوة « البرد » فنزل وأنشأ يتحدر كل يوم ثلاث ساعات بشدة حتى يكسر بلاط القصر ، فإذا تم منه هذا أمعن هرباً حول البستان يطوف بأقصى ما أوتيه من سرعة ! لقد كان برداً عجيباً أغبر ، وكانت أنفاسه بيضاء كالثلج !

وقد جلس المارد اللئيم ذات يوم في الشباك المطل على البستان الأجرد الشاتي ، وقال يحاور نفسه .

— ما أقدر أن أفهم سبب تأخر الشتاء حتى الآن ! وما أظن إلا أن تغيراً قد طرأ على الجو .

ولكن الشتاء لم يأت ، ولا جاء بعده صيف ولا خريف ... بل إن الخريف نفسه جاء وأنضج الثمار في كل بستان إلا في بستان هذا المارد الذي كان يعرفه الخريف لئيما لا يحب أحداً غير نفسه !

وإن المارد لمضطجع ذات صباح في فراشه فسمع أنغاماً شجية تطرق أذنيه خيل إليه لعذوبتها أنها من فرقة موسيقى الملك حين كانت تجتاز الطريق ، ولم تكن تلك الأنغام الشجية غير صدح طائر صغير كان يشدو على بعد من نافذته . لأنه ما سمع من أمد بعيد شدو طائر ، فظن أن ما طرق أذنيه أعذب ما في العالم من ضروب الألحان !

ثم إن البرد وقف تهتانه من حوله ، وريح الشمال قطعت صفيرها ، وهبت على المارد من النافذة نفحة من أريج عبق جميل . فقال المارد في نفسه :

— ما أحسب إلا أن الربيع قد جاء أخيراً . وقفز من فراشه ، فماذا أرى ؟

إنه لمنظر جد جميل !

أولئك هم الأطفال الصغار ، قد دخلوا البستان من خلال نقب صغير وجدوه في أحد الجدر واعتلوا الأغصان وبقوا هنالك جالسين . وقد ابتهج الشجر بمقدمهم فأزرق ، وماس على رؤوسهم في حب وحنان ، وكانت الطير تشدو حيناً وتطير حيناً في جذل وابتهاج ، والزهر يرنو إلى ذلك باسم الثغور من بين الأعشاب

— إنه حقا لمنظر بهيج !

ولكن الشتاء لما يبرح تلك الزاوية القصية التي وقف فيها أصغر الأطفال يجول طوراً ، ويطوف بما حوله طوراً آخر ، والشجرة المسكينة التي بقربه ما تزال شاتية . . إن ذلك الطفل لم يتمكن من الوصول إلى الغصن لصغره ؛ وكانت الريح الشمالية تعصف حوله ، والشجرة تنحني له ما استطاعت وتدعوه قائلة :

— تسلق أيها الطفل الصغير ... ولكنه لن يقدر على شيء من هذا !!

... وأدركت المارد عليه الشفقة حين رآه فقال :

— ألا ما كان أشد إيثاري لنفسي ! لقد عرفت الآن سبب انقطاع الربيع من المجيء إلى هنا ... سأذهب إلى ذلك الطفل

فأضمه على الشجرة ، ثم أنثني على الجدار فأهدمه وأجعل من بستاني هذا ملعباً وقفاً على الأطفال حتى الأبد ... واشتد أسفه على ما كان بدر منه

ثم إن المارد نزل وفتح بابه في هدوء وسار في بستانه ؛ ولكن ما إن رآه الأطفال حتى هربوا ، وعاد الشتاء إلى البستان من جديد ! ولكن صبيا واحداً منهم لم يهرب ، ذلك هو الصغير الذي ملأت عينيه الدموع لما رأى المارد قادماً إليه

وتسلل المارد إلى الطفل ورفعه بلطف فأجلسه على الشجرة فما كان أسرعها حين أورقت وازدهرت ، وما كان أسرع الأطيار حين تساقطت عليها مغردة حائمة حول الصبي الصغير الذي كان يحولها عنه إلى عنق المارد مسروراً ، ثم انحنى الطفل على المارد فقبله ، فلما رأى أصحابه ذلك أمنوا المارد وعادوا وعاد معهم الربيع ، فقال المارد يخاطبهم :

— إنه بستانكم أيها الصغار الآن . ثم تناول معولا كبيراً فهدم به الجدر القائمة حول البستان . فكان الناس إذا مروا به في طريقهم إلى السوق في منتصف النهار رأوا المارد يلاعب الأطفال في أجمل بستان تقع العين عليه !

وظل دأب الأطفال كذلك ، يلعبون طوال النهار ، حتى إذا أمسى المساء وخيم الليل ، عادوا إلى المارد لخيوه وانصرفوا

وقد سألهم المارد مرة عن صديقهم الصغير الذي كان قد رفعه على الشجرة ، فأجابوه بأنهم لا يدرون عن أمره شيئاً ، فإنه ذهب ولم يعد ... إنهم لم يروه من قبل ، ولا رأوه من بعد ، ولا يعرفون أين يسكن . لشد ما حزن المارد على ذلك الطفل الصغير الذي قبله !

* * *

بقي الأطفال على هذا : يختلفون إلى البستان عصر كل يوم بعد انتهاء دروسهم ، فيلعبون مع صديقهم المارد ... غير أن الطفل الصغير وحده كان المتخلف من بينهم أبداً . ولكم كان المارد يشتاقه ويحبه ، ويتحدث عنه ويتمنى أن لو رآه

ومضت على ذلك السنون تتبعها السنون ، فشاخ المارد وعجز من مشاركة صغاره اللعب ، فكان يجلس على مقعد وثير ليتفرج عليهم هانئاً مغتبطاً . وكان يقول في نفسه :

— إن في هذا البستان لكثيراً من الأزهار الجميلة . ولكن أجمل منها في نظري هؤلاء الصغار

وفي صباح يوم شات — وقد أصبح الشتاء الآن لا يفزع المارد ، وإنما هو إغفاءة قصيرة لا يلبث الربيع بعدها أن ينهض بأزهاره وتهاويله — في صباح ذلك اليوم ، بينما كان المارد يرتدي ثيابه إذ بصر بشيء هاله . فكذب نظره وكذب نفسه ... إنه منظر مدهش عجيب ! أفي الإمكان هذا ؟ شجرة حالية بالنوار الجميل في تلك الزاوية القصية وتحتها طفله الصغير الذي أحبه واقفاً ؟

هرول المارد نازلا يستخفه الفرح ، وجاز أرجاء الحديقة مسرعاً حتى جاء إلى الطفل ، وما كاد يقترب منه ويراه حتى طما غضبه واربد وجهه ، وسأله قائلا حين بصر بآثار مسمارين على يديه ومثلهما على رجليه :

— من ذا الذي تجرأ فجرحك ؟ قل من ذا الذي تجرأ عليك ففعل ؟

فأجابه الطفل الصغير :

— كلا ... ما هذه جروح حقيقية ، إنها جروح الحب !

وهنا استولت على قلب المارد الرهبة والخشوع فخر ساجداً أمام قدمي طفله وسأله قائلا :

— من أنت إذاً ؟

فأجابه الطفل باسماً : أنا الصبي الذي سمحت لي مرة باللعب في بستانك هذا ، جئت لآخذك معي إلى بستاني الذي هو الفردوس

* * *

وحينما هوى الأطفال عصر ذلك اليوم كعادتهم ، وجدوا المارد ميتاً في مكانه تحت تلك الشجرة ، وقد نثرت على جثمانه الأزهار والدور الأبيض الجميل

ف . س